سُورَةُ الفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ
بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

٥١١

سورة الفتح

معانى الكلمات :

يهديك : يثبتك .

السكينة : السكون والطمأنينة .

لعنهم : أبعدهم من رحمته .

أعد : هيأ .

تعزروه : تنصروه .

توقروه : تعظموه .

تسبحوه : تنزهوه عما لا يليق .

بكرة وأصيلاً : أى فى كل وقت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل الله على المؤمنين .

٢ ـ أن نقف على عاقبة المنافقين والمشركين .

٣ ـ أن نتعرف على وظيفة الرسول .

المحتوى التربوى :

تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهى على رسوله ﷺ : فتح مبين ، ومغفرة شاملة ،و نعمة تامة وهداية ثابتة ، ونصر عزيز ، إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه ، والاستسلام الراضى لإيمانه وإشارته ، والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية ، والثقة العميقة بالرعاية الحانية ، يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها ، وتبرك الناقة ، ويتصايح الناس : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، وحين يشاع أن عثمان قتل يقول ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ويدعو الناس إلى البيعة فتكون بيعة الرضوان التى فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا ، وكان هذا هو الفتح إلى جانب الفتح الآخر الذى تمثل فى صلح الحديبية .

وكان فتحا فى الدعوة ؛ فقد دخل فى تينك السنتين بين صلح الحديبية وفتح مكة مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر ، وكان فتحا فى الأرض فقد أمن المسلمون شر قريش .

ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح ، ومس يده لقلوبهم بالسكينة ، وما ادخره لهم فى الآخرة من غفران وفوز ونعيم ،والسكينة حين ينزلها الله فى قلب ، تكون طمأنينة وراحة ويقينا وثقة ووقاراً وثباتاً واستسلاما ورضا ، وحين يسترجع الإنسان صورة المسلمين فى الحديبية يدرك معنى السكينة،ويحس برد السكينة وسلامها فى تلك القلوب بعد هزتها العنيفة، تلك القلوب التى استجابت لله ولرسوله ، وانقادت لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك واستقرت زادهم إيمانا مع إيمانهم .

ويلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً ، بل كان هينا يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنوداً لا تحصى ولا تغلب ، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء ، ولكن الله تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة فالله عليم حكيم .

وكانت السكينة وزيادة الإيمان ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم ليكون جزاء المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً ، ويغفر سيئاتهم ، وإذا كان هذا فى حساب الله فوز عظيم ، فوز عظيم فى حقيقته ، وفوز عظيم فى نفوس من ينالونه من عندالله مقدراً بتقديره ، موزونا بميزانه ، ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله ، تطلعوا إلى نصيبهم هم وسألوا عنه ، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضا والفرح واليقين .

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر فى هذا الحادث ، وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف ، وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فى صفة سوء الظن بالله ، وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين، وفى أنهم جميعا عليهم دائرة السوء فهم محصورون فيها ، وهى تدور عليهم وتقع بهم ، وفى غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير ، ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً ، بل إنها أحط ، ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات ، وإن اختلف هذا الأذى وذاك فى مظهره ونوعه .

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هى ظن السوء بالله ، فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائما ، يتوقع منه الخير فى السراء والضراء ، ويؤمن بأن

الله يريد به الخير فى الحالين، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله ، وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً ، فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة وأحسها إحساس مباشرة وتذوق ، فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله ، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها فيسوء ظنهم بالله ، وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ، ويبنون عليها أحكامهم .

وقد جمع الله فى الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ، وبين حالهم عنده ، وما أعده لهم فى النهاية ؛ ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته ، فلا يعيبه من أمرهم شىء ، ولا يخفى عليه من أمرهم شىء ، وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ منوها بوظيفته مبينا للغاية منها ، موجها المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته ، مع ردهم فى بيعتهم إلى الله مباشرة ، وعقد العقده معه جل جلاله ، وذلك حين يبايعون الرسول ﷺ ويتعاقدون معه ، وفى ذلك تشريف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد ، فالرسول ﷺ شاهد على هذه البشرية التى أرسل إليها ، يشهد أنه بلغها ما أمر به ،و أنها استقبلته بما استقبلته ، وأنه كان منها المؤمنون ، ومنها الكافرون ، ومنها المنافقون ؛ وكان منها المصلحون ، ومنها المفسدون ، فيؤدى الشهادة كما أدى الرسالة ، وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضا وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ، ونذير بسوء المنقلب والغضب واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين .

هذه وظيفة الرسول ﷺ ، ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة ، أنها الإيمان بالله ورسوله ثم النهوض بتكاليف الإيمان ، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ، ويوقرونه فى نفوسهم بالشعور بجلاله ، وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفى النهار فى البكور والأصيل،وهى كناية عن اليوم كله ، والغرض هو اتصال القلب بالله فى كل آن، فهذه هى ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيراً .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أثر القرآن الكريم ، والتربية النبوية الواضح فى التغيير حيث اطمأنت نفوس المؤمنين لتكاليف هذا الدين وتحمل مسؤولياته .

٢ ـ ضرورة الوفاء بالعهد والالتزام بالوعد وخاصة إذا كان عهداً مع الله تعالى .

٣ ـ من فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين مغفرة الذنوب وإتمام نعمة الدين .

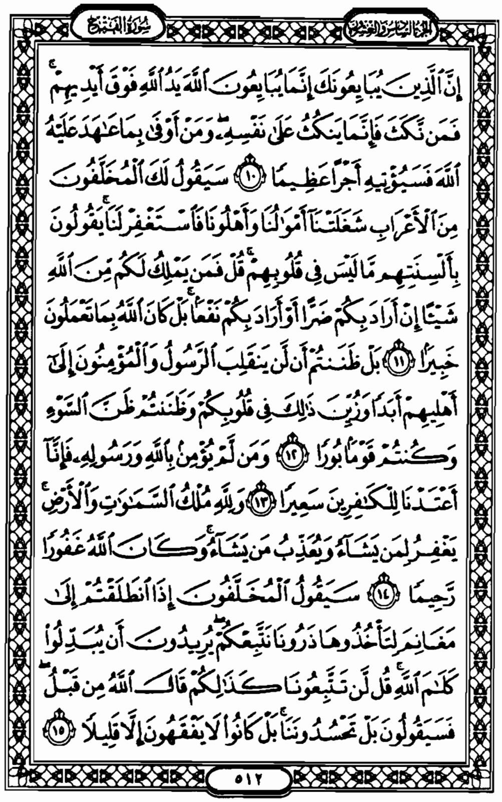
الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم
فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه
الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴿١٠﴾ سيقول لك المخلفون
من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون
بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله
شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون
خبيرا ﴿١١﴾ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى
أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء
وكنتم قوما بورا ﴿١٢﴾ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا
أعتدنا للكافرين سعيرا ﴿١٣﴾ ولله ملك السماوات والأرض
يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا
رحيما ﴿١٤﴾ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى
مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا
كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل
فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴿١٥﴾

٥١٢

معانى الكلمات :

يبايعون : يعاهدون .

نكث : نقض .

يملك : يستطيع .

بورا : هالكين .

سعيرا : نارا شديدة موقدة .

ذرونا : اتركونا .

يفقهون : يفهمون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم رفعة قدر المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان .

٢ ـ أن نعلم سماحة الإسلام ويسره فى قبول الأعذار .

٣ ـ أن نستشعر خطورة المنافقين .

المحتوى التربوى :

قد جاء ﷺ ليصلهم بالله ، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله ﷺ عنهم ، فهو حين يضع يده فى أيديهم مبايعا ، فإنما يبايع عن الله ، وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، والواحد منهم يشعر وهو يضع يده فى يده ، أن يد الله فوق أيديهم ، فالله حاضر البيعة والله صاحبها والله آخذها ، ويده فوق أيدى المتبايعين ، ومن ؟ الله فيا للروعة والجلال .

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة ـ مهما غاب شخص رسول الله ﷺ ـ فالله حاضر لا يغيب ، والله آخذ فى هذه البيعة ومعط وهو عليها رقيب ، وما من بيعة

بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله ، والله هو الغنى عن العالمين ، والعبد الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذى يكرهه ويمقته ، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء ويعطيهم الأجر الذى يقول عنه إنه عظيم، عظيم بحساب الله وميزانه ، ووصفه الذى لا يرتقى إلى تصوره أبناء الأرض المقلون المحدودون الفانون .

وعندما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، ويلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب ، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لسوء ظنهم بالله ؛ ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين الذاهبين إلى قريش فى عقر دارها ، يلتفت إليهم لينبئ الرسول ﷺ عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالما هو ومن معه ، ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين، كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه ، وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة ، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه المغانم السهلة ، ويلفته طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم ، فلا يقبل منهم الخروج معه فى هذا الوجه القريب الميسور الذى سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية ، والقرآن لا يكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ، ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها ، ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك ، فالمخلفون من الأعراب سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، وليس هذا بعذر ، فللناس دائما أهل وأموال ، ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها ، وسيطلبون استغفار الرسول ﷺ وهم ليسوا صادقين فى طلب الاستغفار ، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى داخل قلوبهم .

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لا يدفعه تخلف ، وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس وتتصرف فى أقدارهم كما تشاء ، وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرف الله قدره على وفقه ، فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضررًا ، ولا يؤخر نفعا ، وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله ، ولا يؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط ، وهو توجيه تربوى فى وقته وفى جوه .

وقد ظن المخلفون أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة ، ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده ، كما أنهم لم يقدروا أن الواجب هو الواجب ، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت ، وأن طاعة رسول الله

ﷺ يجب أن تكون بدون النظر إلى الربح الظاهرى والخسارة الشكلية ، فهى واجب مفروض يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه . لقد ظنوا ظنهم ، وزين هذا الظن فى قلوبهم ، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا فى سواه ، وكان هذا هو ظن السوء بالله ، الناشئ من أن قلوبهم بور ميتة جرداء لا حياة فيها ولا خصب ولا إثمار .

إن الميزان هو ميزان الإيمان ، ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ، ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة ، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة والتمتع بمغفرة الله ورحمته ، لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم ، فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم فى هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين ، فإن الله الذى يوعدهم هذا الإيعاد ، هو مالك السموات والأرض وحده ، فهو الذى يملك المغفرة لمن يشاء ، وهو الذى يملك العذاب لمن يشاء ، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر فى القلوب ، ومغفرة الله ورحمته أقرب فليغتنمها من يريد قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله بالسعير .

ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين ، مخالفا لظن المخلفين بأسلوب يوحى بأنه قريب وأغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر ، وقد يكون هذا ، ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصا فى خيبر ، فهو يوحى بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير ، وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا فيطلبون أن يتبعوهم .

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة ، وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله ، وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج بل تحسدوننا فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة ، ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم بحكمة الله وتقديره ، فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا ، وجزاء الطائعين أن يعطوا من فضل الله .

ما ترشدنا إليه الآيا ت تربويًّا :

١ ـ وجوب الوفاء بالعهد ، وحرمة نقض العهد ونكثه .

٢ ـ إن أذى المنافقين لا يقل عن أذى المشركين للجماعة المسلمة ، وإن اختلف الأذى فى نوعه ومظهره .

٣ ـ التوقف والتلكؤ عن طاعة الله لن يدفع ضرراً ولا يؤخر نفعا .

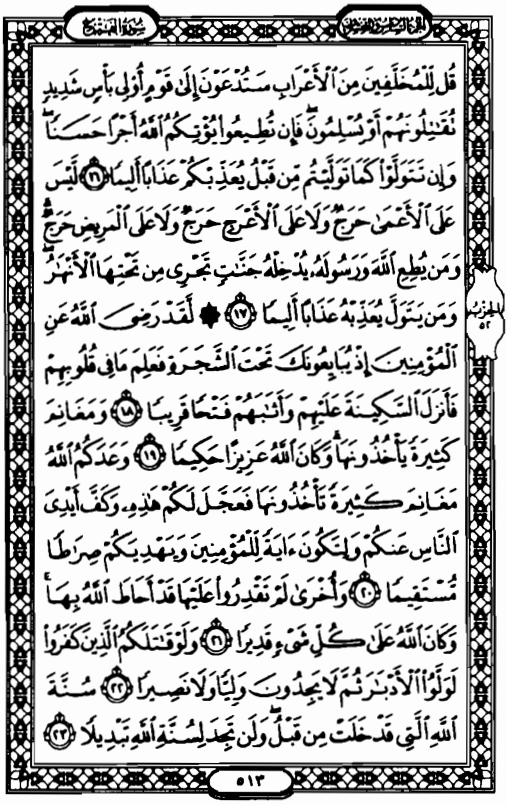
قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ
ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
الجزء ٢٦
٥١٣

معانى الكلمات :

تتولوا : تعرضوا .

حرج : ذنب .

يبايعونك : يعاهدونك .

السكينة : الطمأنينة .

كف : منع .

آية : علامة .

سنة : طريقة .

خلت : مضت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم مشروعية الاختيار والامتحان لمعرفة القدرات والمؤهلات .

٢ ـ أن نتعرف على أصحاب الأعذار فى التخلف عن الجهاد .

٣ ـ أن نعلم أن سنة الله أنه ما تقاتل أولياء الله مع أعدائه فى معركة إلا نصر الله أولياءه على أعدائه .

المحتوى التربوى :

أمر الله نبيه أن يخبر المخلفين أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء ، يقاتلونهم على الإسلام ، فإذا نجحوا فى هذا الابتلاء كان لهم الأجر ، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير ، ونلحظ طريقة التربية القرآنية ، وطريقة علاج النفوس والقلوب بالتوجيهات القرآنية، والابتلاءات الواقعية ، وهذا كله ظاهر فى كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين ، وفى توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيمانى القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد بلا حرج ولا عقاب ؛ فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد ، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى

يبرأ ، والأمر فى حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان ، فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه ، ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره .

ينتقل السياق إلى الحديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين ، مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ،و الله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها وهو راض عنهم ، فقد علم مافى قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم ، وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم ، وعلم ما فى قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين ، ويرسم التعبير السكينة نازلة فى هدوء ووقار تضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحا ، وأجرى على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وحصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد عليهم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة ، فقد كانت هذه مغانم كثيرة أعطاها الله للمؤمنين ، وفى الرضا والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة كما تتجلى الحكمة والتدبير ، وبها يتم تحقيق الوعد الإلهى الكريم .

وبعد ذلك التبليغ العلوى الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم ،الحديث عن هذا الصلح ،أو عن هذا الفتح الذى تلقوه صابرين مستسلمين، وهذه بشرى من الله للمؤمنين ، فالله أعد لهم مغانم كثيرة ، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذى لا يخلف ، وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لهم هذه ، وهذه قد تكون صلح الحديبية ، كما أنها قد تكون فتح خيبر .

ويمن الله عليهم بأن كف أيدى الناس عنهم ، وقد كف الله عنهم أيدى المشركين من قريش كما كف أيدى سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر، وهم قلة على كل حال ، والناس كثرة ، وَلكنهم وفوا ببيعتهم ، ونهضوا بتكاليفهم ، فكف الله أيدى الناس عنهم وأمنهم ، وهذه الوقعة التى كرهوها فى أول الأمر ، وثقلت على نفوسهم ، فالله ينبئهم أنها ستكون آية لهم ، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم ، وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم ، مما يثبت فى نفوسهم أنها شىء عظيم وخير جزيل،ويلقى السكينة فى قلوبهم والاطمئنان والرضا واليقين،وجزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم يهديهم صراطا مستقيما،وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه ، والهداية يرزقونها ، فيتم لهم الخير من كل جانب فى الأمر الذى كرهوه واستعظموه ،و هكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار ، ويربى قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال .

كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه لم يقدروا عليها بقوتهم ، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره ، وتختلف الروايات فى هذه الأخرى وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هى فتح مكة ، بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح الذى لم يدم سوى عامين ثم نقضه المشركون ، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريبا ، وكان الله على كل شىء قديراً .

ويقرر السياق لهم أنهم منصورون ، وأن الصلح فى هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف أو لأن المشركين أقوياء ، ولكنه تم لحكمة يريدها ، ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا ، فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون فى موقعة فاصلة ، وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التى لا تتبدل ، فأية سكينة أو أية ثقة ، وأى تثبيت يجده أولئك المؤمنون فى أنفسهم ، وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية فى هذا الوجود ؟ وهى سنن دائمة لا تتبدل ، ولكنها قد تتأخر إلى أجل ، ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التى يعرفها الله لهم ، أو تتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ؛ لتكون له قيمته وأثره أو لغير هذا ، وذلك مما يعلمه الله ، ولكن السنة لا تتخلف والله أصدق القائلين .

يقول صاحب الأساس : « جاءت الفقرة الثانية فحدثتنا عن النموذج القائم بحق الرسالة من إيمان ونصرة وتعظيم من خلال الكلام عن الذين بايعوا بيعة الرضوان ، فكانوا نموذجاً حقا للمبايعين الصادقين ، وأرانا الله عز وجل ماذا أثابهم فى الدنيا على هذا :

١ ـ إنزال السكينة عليهم .

٢ ـ الفتح القريب .

٣ ـ المغانم الكثيرة التى منها المعجل ، وهو ما سيعطيه إياهم فى خيبر ، ومنها ما بعد ذلك .

٤ ـ كف أيدى الناس عنهم فلم يؤذوا فى أنفسهم ولم يؤذ أهلوهم فى المدينة المنورة .

٥ ـ الهداية إلى الصراط المستقيم ، وفى ذلك بشارة لهم أنهم سيوفقون إلى العمل بالإسلام حتى يموتوا عليه .

٦ ـ الغنائم التى لم تكن تخطر ببالهم أنهم يقدرون عليها مما سيفتحه الله عليهم فيما بعد من فارس والروم وغيرهما .

٧ ـ البشارة لهم فى كل معركة أنهم منصورون ، وفى ذلك تزكية لهم بأنهم يستحقون النصر الربانى، لتوفر شروط ذلك فيهم ، وهذا كله ببركات هذه البيعة الصادقة لرسول الله ﷺ إيمانا به ، وقياما بحق نصرته ، وتوقيرًا له ، أى تحقيقا لما يطالب الله به عباده من قيام بحق رسالته » .

ما ترشدنا إليه الآيا ت تربويًّا :

١ ـ كل من يخلص لله تعالى نيته وعمله ولا يبخل على دين الله بشئ من نفسه أو ماله فإن الله تعالى يرضى عنه ويفوز فوزا عظيما فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ ربما يرى الإنسان فى بعض الأشياء شرّا ويكون فيها الخير الكثير له وللجميع ، وعلى المسلم أن يرضى بقضاء الله وقدره .

٣ ـ نصرة الحق سنة الله التى لا تتبدل .

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ
مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ
لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ
لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ
وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾
لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

معانى الكلمات :

أظفركم عليهم : مكنكم منهم .

معكوفا : محبوسا وممنوعا .

تطؤوهم : تهلكوهم .

فتصيبكم : فينالكم .

معرة : مكروه وعيب .

تزيلوا : تفرقوا . **الحمية** : الكبرياء بالباطل والغضب الشديد .

ليظهره : ليعليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم خصوم المؤمنين من هم فى ميزان الله ؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم ؟

٢ ـ أن نتعرف على جانب من حكمته تعالى المغيبة وراء تقديره وتدبيره .

٣ ـ أن نعلم كرامة الله للمؤمنين إذ حمى ظهورهم من خلفهم مرتين .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق امتنان الله على المؤمنين بكف أيدى المشركين عنهم ، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على مَنْ هاجموهم ، مشيراً إلى ذلك الحادث الذى أراد أربعون من المشركون أو أكثرأو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين ، فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ﷺ ، وهو حادث وقع يعرفه السامعون ، والله يذكره لهم ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر ، وليوقع فى قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهى تدبر لهم كل شيء ، وتقود خطاهم ، كما تقود خواطرهم ، ليسلموا أنفسهم كلها لله بلا تردد ولا تلفت ، ويدخلوا بهذا فى السلم كافة بكل مشاعرهم وخواطرهم واتجاههم ونشاطهم موقنين أن الأمر كله لله وهو بصير بهم ظاهرهم وخافيهم ، فهو يختار لهم عن علم وعن بصر ولن يضيعهم ، ولن يضيع عليهم شيئا يستحقونه .

ثم يحدثهم عن خصومهم من هم فى ميزان الله ؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصدهم للمؤمنين عن بيته الحرام ، وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين ؟

فيسجل السياق أنهم فى ميزان الله واعتباره الكافرون حقا الذين يستحقون هذا الوصف الكريه ، يسجله عليهم كأنهم منفردون به ، عريقون فى النسبة إليه فهم أكره شىء إلى الله الذى يكره الكفر والكافرين كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر ، وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدى وتركه محبوسا عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع ، وهى كبيرة فى الجاهلية والإسلام .

فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقيا عليهم لأن جرمهم صغير ، كلا إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها الله للمؤمنين ؛ فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين فى مكة لم يهاجروا ، ولم يعلنوا إسلامهم تقية فى وسط المشركين ، ولو دارت الحرب وهاجم المسلمون مكة وهم لا يعرفون أشخاصهم ، فربما وطؤوهم وداسوهم وقتلوهم ، فيقال : إن المسلمين يقتلون المسلمين ، ويلزمون بدياتهم حتى يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون .

وهناك حكمة أخرى وهى أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول فى رحمته ،بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ، ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين فى القتال، ولعذب الكافرين العذاب الأليم . وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره .

ويمضى فى وصف الذين كفروا ، وصف نفوسهم من الداخل بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر، ففى قلوبهم حمية الجاهلية ، حمية لا لعقيدة ولا لمنهج ، إنما هى حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت ، الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله ﷺ ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهدى الذى ساقوه أن يبلغ محله الذى ينحر فيه ، مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة ، كى لا تقول العرب إنه دخلها عليهم عنوة ، ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين ، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته ، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التى لم تنتهك فى جاهلية ولا إسلام ، وقد جعل الله الحمية فى نفوسهم على هذا النحو الجاهلى ، لما يعلمه فى نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له .

فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية ، وأحل محلها السكينة والتقوى ، والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتا هما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة المطمئن بما فيه من ثقة ، المراقب لربه فى كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى ، ولا يغضب لذاته إنما يغضب لربه ودينه ، فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع فى رضا وطمأنينة ،

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى وكانوا أهلها ، وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى ، فهم قد استحقوها فى ميزان الله وبشهادته وهو تكريم بعد تكريم صادر عن علم وتقدير .

وتأتى البشرى ؛ بشرى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ ودخولهم المسجد الحرام آمنين ، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة لا يخافون ، وقد تحققت بعد عام واحد ، ثم تحققت بصورة أكبر بعد عامين اثنين من صلح الحديبية، إذ تم فتح مكة وغلبة دين الله عليها، ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان ، فالدخول واقع حتم ؛ لأن الله أخبر به ، ولكن المشيئة يجب أن تظل فى نفوس المسلمين فى صورتها الطليقة لا يقيدها شىء ، حتى تستقر هذه الحقيقة فى القلوب .

وتأتى البشرى الأخرى ؛ فلقد ظهر دين الحق ، ولا فى الجزيرة وحدها ، بل ظهر فى المعمور من الأرض كلها قبل مضى نصف قرن من الزمان ، ظهر فى إمبراطورية كسرى كلها ، وفى قسم كبير من إمبراطورية قيصر ، وظهر فى الهند وفى الصين ، ثم فى جنوب آسيا فى الملايو وغيرها ، وفى جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) ، وكان هذا هومعظم المعمور من الأرض فى القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادى .

وما يزال دين الحق ظاهرًا على الدين كله حتى بعد انحساره السياسى عن جزء كبير من الأرض التى فتحها وبخاصة أوربا وجزر البحر الأبيض ، وانحسار قوة أهله فى الأرض كلها بالقياس إلى القوى التى ظهرت فى الشرق والغرب ، أجل ، ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله من حيث هو دين فهو الدين القوى بذاته ، القوى بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله .

وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله فى حقيقته ، بل إنه هو الدين الوحيد الباقى قادراً على العمل والقيادة فى جميع الأحوال ، ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم ، فغير أهله يدركونها ويخشونها ويحسبون لها فى سياستهم كل حساب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المؤمن يوقن تماما أن الأمر كله لله ، وأن الخيرة ما اختاره الله ، والله يريد به الخير .

٢ ـ المؤمن يراقب ربه فى كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى ، ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه.

٣ ـ دين الله قوى بذاته وطبيعته ، زاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله لما فى طبيعته من استقامة مع الفطرة .

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ
تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ
فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ
فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ
عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ
فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٥١٥

معانى الكلمات :

يبتغون : يتطلعون .

شطأه : فراخه .

فآزره : قواه وأعانه .

على سوقه : على أصوله .

تقدموا : تتقدموا .

تحبط : تبطل .

يغضون : يخفضون .

امتحن : أخلص وأصفى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم صفة أصحاب رسول الله ﷺ تلك الجماعة المختارة .

٢ ـ أن نتعلم الأدب اللائق مع الله ورسوله ﷺ .

٣ ـ أن نتعلم الأدب الأليق فى الحديث والخطاب عن رسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

نجىء إلى ختام السورة بتلك الصورة الوضيئة التى يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ ، وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التى رضى الله عنها ، وبلغها رضاه فردًا فردًا ، صورة عجيبة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ؛ فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ، فهم أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ولكنهم قطعوا هذه الوشائج كلها، رحماء فيما بينهم وهم فقط إخوة دين، فهى الشدة لله والرحمة لله، وهى الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة ، فليس لهم فى أنفسهم شىء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها.

ثم يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة ، وكأنما هذه هيئتهم الدائمة التى يراها الرائى حيثما رآهم ، وتأتى اللقطة الثالثة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم ، وهى صورة لمشاعرهم الدائمة الثابتة ، فكل ما يشغل بالهم وكل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه ، ولا شىء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر فى ملامحهم، ونضحها على سماتهم؛ سيماهم فى وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول الحى الوضىء اللطيف ، وليست هى هذه السيما هى النكتة المعروفة فى الوجه كما يتبادر إلى الذهن ، فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة ، وهذه الصورة الوضيئة ليست مستحدثة ، إنما هى ثابتة لهم فى لوحة القدر وجاء ذكرها فى التوراة .

وصفتهم فى بشارة الإنجيل بمحمد ﷺ ومن معه ؛ كزرع نام قوى أخرج أول ما ينشق عنه من الفروع ، والنبت الطرى فى جوانبه من قوته وخصوبته ، وهذه الفروع لا تضعف العود بل تشده ، فاستغلظ الزرع وضخمت ساقه وامتلأت ، فاستوى لا معوجا ومحنيا ، ولكن مستقيما قويا سويا ، هذه صورته فى ذاته ، أما وقعه فى نفوس أهل الخبرة فى الزرع فهو وقع البهجة والإعجاب ، وأما وقعه فى نفوس الكفار على العكس : فهو وقع الغيظ والكمد ، وهكذا يثبت الله فى كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة حتى تبقى نموذجا للأجيال تحاول أن تحققها ، لتحقق معنى الإيمان فى أعلى الدرجات ، وفوق هذا التكريم كله وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم

سورة الحجرات

أول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم ، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التى يقوم عليها هذا العالم ، والتى تكفل قيامه أولا ، وصيانته أخيراً ، عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله ، ويليق أن ينتسب إلى الله ، عالم نقى القلب نظيف المشاعر ، عف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة .

هو عالم له أدب مع الله ، ومع رسول الله يتمثل هذا الأدب فى إدراك حدود العبد أمام الرب والرسول الذى يبلغ عن الرب ، فلا يسبق العبد المؤمن إلهه فى أمر أو نهى ، ولا يقترح عليه فى قضاء أو حكم ، ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ، ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه ، تقوى منه وخشية ، وحياء منه وأدبا ، فيأيها الذين آمنوا لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا ، لا فى خاصة أنفسكم ، ولا فى أمور الحياة من حولكم ، ولا تقولوا فى أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ، ولا تقضوا فى أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله .